

نقرأ فلسطين ونكتب لغزة من ثقب إبرة في زمن الحرب والإبادة

محمود بركة، فلسطين

بداية

كُتبت هذه النصوص من أهل غزة وأصحابها، بالقلوب والحناجر. أمّا الأقدام فلم تتسع لها غير كتابة مشهدية الزمن الطويل للحرب في أوقات النزوح وفي مسافات طويلة تحت القصف وهول الإبادة. كانت ذاكرة المدينة تقفز أمام طول النظر وقصر الخطوات، واكتفت العيون بملامسة أخوتها من العيون النازفة من النار والأوجه الجريحة. خلال زمن الموت الكثير، وضياح الروح في أزقة القلق، ظلّ يلاحقني سؤال لا تهدأ إجابته، فالجواب يحمله الأحياء ممن عاشوا خطر الحرب، ومن صاروا تحت التراب، ومن رجعوا في عربات الموتى، والجثث الشهيدة العائدة في ثلجات الاحتلال المتحرّكة بعد أعوام من البحث عن الشهداء المفقودين. والجواب يحمله أطفال فقدوا عائلاتهم، وشوارع تبكي في سؤال الشاعر الراحل "فالببيوت تموت إذا غاب سكّانها"، وهم لم يغيّبوا بل طردتهم أسلحة الدمار الرهيب، فسكنوا خيم اللجوء. كان الخوف يمسك بطرف القلب: كيف نروي ميراث من عاشوا التجربة، وإرثهم المصنوع من إبداع على الرغم من فواجع الحرب وسياح الحصار؟ وقد صار العالم يسمع رغم ضجيج ما يحاصره من الغرق في الزمن السريع بالمتاهات. فالخوف إنّما يكون من النسيان لا من الغفران، من أن تُنسى جرائم دولة الإبادة والمؤبّدات! وذلك غير قابل للنسيان والغفران لاحتلال يتوسّع بالفاشية الحديثة وأنظمة تمنحه الإفراط في الصمت ومطاردة الكلمة العادلة، وسياسات دولية تقرأ بلا خجل، وتشاهد بعيون وقحة قصف المباني وقتل الناس وحصار الأرض.

كُتبت في وجداني كالباحث عن الحواسّ الجديدة بعدما امتلأت حواسّ الجسد بالفقد ومحو الذاكرة. هذه الأرض المملوءة بالدماء والجثث والجماجم والويلات والقهر والجوع ستكون لعنة على من يمشي فوقها بالقوة ورغبة السيطرة، وعلى من يتناسى الدم والعذاب، ومن يفتح للاحتلال باباً آخر ليمرّ وتسقط عنه جرائم الإبادة... فلسطين الطيّبة تغرس في الوجدان أنّ الكتابة تحتاج لمن يرويها بقراءة أبنائها وأشجارها وثياب نسائها وميراث أجيالها، وبحرها "قميصها المسروق". وهي قراءة تعلّمنا درسها البليغ على امتداد فلسطين. فأرضنا هي هذه التي تعيش معنا ونعيش معها محطات الألم والتعذيب في رحلة لا تنتهي من حياة الفلسطيني وحياة فلسطين.

حين بدأت البحث عن هذه النصوص، كان هاجسي الذي لا يهدأ هو: عن ماذا أسأل؟ وكيف يبدأ الكلام في أرض يمتلئ أبناؤها بمضامين اللغة "وسحرها الأسود"؟ ومع كل نصّ جاء من غزة، ولدت حاسّة جديدة تدقّ جدران العالم، كما وولدت حاسّة السمع والبصر لأول مرّة. هنا، تصحّ الكتابة على مسافة قريبة على الرغم من الركام والمدينة المحطّمة. وهنا، يداهمنا تساؤل قديم: "هل من متّسعٍ للغناء في أوقات الظلام؟ نعم. ثمة مجال للغناء في أوقات الظلام، غناء عن أوقات الظلام!" قرأتُ النصوص في لحظات تمنّيت معها الإمساك بالعالم ليقرأ ويسمع عن قوة الكلمة في سلسلة القصص وهي تروي ما لا يمكن لأحد غير كتّابها كتابته. فكيف تقرأ عن أطفال يبحثون عن ضوء الفرحة وسط الركام؟ عن فتاة تجلس كل يوم في مكان فقد رفيق دربها قرب حافة البحر؟ كانت الكتابة هنا ولادة لأول مرّة، لميلاد حاسّة تشبه جرساً يضرب قرعته مسمّع الكون وضميره الغارق في الكتابة المملة، ورماد الكلام، ومنصّات الفُرجة، ومنابر الاحتفاء. ففي غزة وعموم فلسطين، الكتابة وحدها قادرة على تمثيل الضحايا والناجين في حال غياب الأجساد، ووحدها القادرة على نقل أصوات المكلومين وتقدير كرامة ثباتهم، ووحدها القادرة على الاقتراب من الروح وساحة الجسد. إنهم يكتبون دون بلاغة وتجميل وترقيم، وتلك الكتابة الحقيقية، وكتابة الحقيقة. حقيقة أن تكتب فلسطين وهي تعيش ظلم الاحتلال على مسمع العالم، وأن تكتب ميراث أهل الأرض الأصلاء في مواجهة ظلام الغربة وظلمهم في البلاد، وأن تكتب غزة وفلسطين وهي تُبعث من تحت الأرض "والسماة الأخيرة" والبحر المحاصر، والهواء المسكون بأصوات الحق على الرغم من أدخنة الحرب والإبادة، حتى تتجاوز الكلمات سياج الاحتلال وخطر الزوال.

لقد استضاف هذا الريبورتاج مجموعة من الكتّاب الغزيين والغزيات، وهم: إبراهيم عصام، وشجاع الصفدي، وعبد الوهاب حمد، وشادي الكفارنة، ويافا أبو عكر، وفداء زياد، وسامية الغصين، ونجياً محمود، وفاطمة قويدر، ونعمة حسن، وعاطف حسنين، ورمضان بركة.

في الحرب أمشي مع الأطفال حتى يبرق الأمل والضوء...

إبراهيم عصام

مخرج ومصور من غزة، فلسطين

لم أعش الحرب من شرفة أو شاشة، بل من مستوى الأقدام الحافية. كنت فناناً أضع الكاميرا على كتفي، وإنساناً أضع قلبي في العراء. عامان مرّا كعمر كامل، أو كجملة طويلة بلا نقطة. المدينة التي عرفتها لم تختف فجأة، كانت تُسلب قطعة قطعة، يوماً بعد يوم، ونحن شهودٌ ومشاركون في الوقت ذاته.

النزوح لم يكن حدثاً، بل حالة دائمة. خيامٌ نصبت على عجل، ثم عُمرت على مهل. المطر هنا ليس نعمة، هو امتحان آخر. رأيت الخيام تغرق، والبطّانيات تتحوّل إلى طين، والناس يحاولون إنقاذ ما لا يُنقذ. المراهيضي في العراء، والجسد بلا ستر، والحياء يُعلّق مؤقتاً كي تستمر الحياة. المياه تُنقل في غالونات مُثقلة، كأن كل قطرة تحتاج

إلى مفاوضات شاقّة. الملابس قليلة، والأطفال خُفاة، لكنّهم لا يعرفون الشكوى كما نعرفها نحن الكبار. كنت ألتقط مشاهد لا تُدرّس في معاهد السينما: أطفال يمرون على البحر، يرقصون وقت الغروب، كأنّهم يستعيرون الفرحة لدقائق من موجةٍ عابرة. نساء وأطفال يغسلون الأواني في البحر، الملح يلتصق باليدين، والذاكرة. الركض خلف مظلّات المساعدات أشبه بطقسٍ جماعي: الأجساد تركض، والكرامة تلهث خلفها. شاحنات المساعدات تمرّ، ولا تمرّ معها الأسئلة: لماذا نُطارِد ما هو حقّنا؟ رأيتُ الموت من أجل الدقيق، رأيتُ الحطب يُجمع كما تُجمع الذكريات الأخيرة. النار تُسعلُ للطهي، وتُشعلُ في الصدور أسئلةً لا جواب لها. النساء الكادحات هنّ عمود هذا الزمن: يحملن الماء، ويخبزن، ويربطن الخيمة، ويخفين دموعهنّ كي لا يسقط السقف على الأطفال.

ضوء يستيقظ تحت القصف ويصنع الفرحة

حين يعلو صوت المزمار وطبول الفرحة على صوت القصف، لا يكون ما يحدث مجرد احتفال، بل يكون فعل حياة، كرنفلاً يمضي إلى شابلن في قلب غزة. لم يكن ذلك موكباً احتفالياً بالمعنى التقليدي، ولا فعاليّة ختامية عابرة لمهرجان سينمائي، بل اختباراً جماعياً لذاكرة المدينة، وقدرتها على التمييز بين صوتين: الصوت الذي اعتاد الأطفال الهروب منه، والصوت الذي تذكروا معه كيف يُركض نحوهم.

من الشارع المركزي لمدينة غزة، شارع عمر المختار، انطلق كرنفال اختتام الموسم الأول لمهرجان غزة السينمائي للأطفال، قادماً من حديقة الصداقة النرويجية في حيّ الرمال، والتي تحوّلت إلى مخيم للنازحين، ماراً بالمجلس التشريعي الفلسطيني، وصولاً إلى ساحة مسرح رشاد الشوّا المدّمّر. المسافة لم تكن جغرافية فحسب، بل شعورية أيضاً: انتقال بطيء من ذاكرة الحرب إلى احتمال الفرحة.

طبول، وإيقاعات تراثية، ودبكة شعبية، وكشافة، ومهرجون، وشخصيات ديزني التي لا تُعرف السياسة ولا الخرائط. وجوه أطفال ملوّنة، ووجوه أهالٍ بدت كأنّها تستعيد أعماراً قديمة. لم يكن واضحاً إن كان ما يجري حاجةً للفرحة أم حنيناً إليه، لكن المؤكد أن شيئاً إنسانياً عميقاً كان يتحرّك في الشارع: غريزة حبّ الحياة.

وكما كتبت الشاعرة البرتغالية صوفيا دي ميلو برينيير "الفرحة ليس نسيان الألم، بل القدرة على النظر إليه دون أن يهزمنّا." ذلك بالضبط ما كان يحدث هنا: الفرحة لم يمخ آثار الحرب، لكنه رفض أن يسمح لها بأن تكون الصوت الوحيد.

كفنان بصري، اعتدت البحث عن المعنى في التفاصيل الصغيرة. وفي هذا الكرنفال، التفاصيل كانت تصرخ: طوابير الأطفال أمام رسامي الوجوه، طوابير تدعو للبهجة، لا تشبه طوابير الجوع التي عرفتها المدينة خلال الحرب. أطفال يرتدون أفضل ما توفّر لديهم، لأن أحداً طلب منهم ذلك، بل لأنهم أرادوا أن يليقوا بالفرحة.

سيارات توقفت طوعاً، لا اضطراراً، لينضمَّ ركبها إلى الموكب، وأخرى فتحت أسقفها للصحفيين كي يروا أفضل. كان الشارع كله يتحوّل إلى لقطة سينمائية طويلة بلا قطع. الناس يرفعون ملصقات المهرجان كأنهم فريقه التنظيمي، ويرقصون مع المهرج، ويحيطون بالدمى، ويشاركون في الحدث لا كمشاهدين، بل كأصحاب بيت. وهذا طبيعي، فالمهرجان كان لهم، ومن أجل أطفالهم الذين حُرِّموا من الحياة لعامين وأكثر.

سمعتُ أكثر من امرأة تهمس: "اللهم أسعد من أسعد أطفالنا." في تلك اللحظة، فهمت أن كلَّ ابتسامة كانت تمُدُّ فريق المهرجان بطاقة إضافية، وأن التعب يُمحي فوراً أمام أي ضحكة لطفل. شعرت أن كاميرا واحدة لا تكفي. كنت أحتاج عدسات إضافية لالتقاط الرقص، والدهشة، والأهازيج، وانفعالات الأطفال حين يعلو صوت الطبل بدل الانفجار.

الفرق بين الهروب من الخطر والرقص في الشارع فرقٌ لا يُقاس بالمسافة، بل بالكرامة. وجاءت الذروة في ساحة المسرح المدمر، حين عُرض فيلم الاختتام: "الطفل" لتشارلي شابلن. فيلم أبيض وأسود، صامت، قادم من قرن آخر، لكنه بدا وكأنه صُنِعَ لأطفال غزة تحديداً. رأيت اندماجاً وتأثراً لم أعهده من قبل، على الرغم من توثيقي عشرات العروض السينمائية للأطفال. ضحكوا، وصمتوا، وتعاطفوا، كأنهم وجدوا في شابلن أخاً أكبر نجا من القسوة بالسخرية والحنان.

هنا تتجلّى المفارقة: أطفال عاشوا القصف، يتفاعلون بعمق مع فيلم صامت، أطفال عرفوا صوت الطائرات، يكتشفون معنى المزمар. وكان شعار المهرجان "نحب الحياة غداً" متناغماً تماماً مع ما جرى في الشارع.

لم يكن شعاراً نظرياً، بل ممارسة حيّة. هذا المهرجان، الذي نظّمته مؤسسة مشهراوي لدعم السينما والسينمائيين في غزة، والتي أسّسها المخرج الفلسطيني رشيد مشهراوي، وبالتعاون مع مؤسسة حكمت فلسطين ومجموعة من الجمعيات واللجان المحلية.. لم يكن حدثاً نخبويّاً، بل مساحة عامة أعادت تعريف العلاقة بين الفن والناس. من وجهة نظر فنّان عمل طويلاً مع الأطفال، أستطيع التأكيد على أن هذه الأنشطة ليست ترفاً، بل ضرورة نفسية وإنسانية. الطفل الذي يرقص اليوم، أقلُّ قابلية لأن ينكسر غداً. والمدينة التي تجرؤ على الفرح، على الرغم من كل شيء، لا تزال حيّة. لم يكن الكرنفال نهاية مهرجان، بل بداية تذكير جماعي: أن الحياة، مهما تأخرت، تستحق أن نحبّها الآن.

على شفير ألم الكتابة وعيناها المفتوحة بين شظايا الحرب

شجاع الصفدي

كاتب وشاعر من غزة، فلسطين

في غزة لا قعر أكثر للنزول إليه. حلّت بهذه المدينة نازلةً جعلت رحلة من تبقى من الأحياء، رحلة مضيئة للصعود إلى الصفر، ولم يعد للنحيب جدوى، ولا تكرار القصص المأساوية يترك أثراً على جبين الإنسانية. لقد أصبح العالم مفرط التنكيل بكل المبادئ والقيم، وأصبحت غزة نموذجاً يعرّي كل ما يمكن التنظير به في المحافل الدولية أو الأصول القانونية. أكتب بالذاكرة، وبحضور الزمن الواقع على شفير ألم الكتابة وعيناها المفتوحة على الرغم من شظايا الحرب والبرد والتجوع والنزوح وفقدان المكان.

سألته: كيف أحوالك في النزوح؟

أجاب: "النزوح خروج الروح".

لعلّ هذا الوصف أبلغ ما سمعته طوال سنتين من الهلاك. لذلك من لم يعيش ألماً كهذا، ليس عليه مطلقاً وليس مقبولاً منه أن ينصح أو يفتي أو ينتقد أو يعترض على أبناء غزة بأيّ صيغة، وبأيّ رأي، وبأيّ شكل.

تبدو غزة، وكأنها تعرّضت لضربة بمطرقة كونية، أو تصادم نيزكٍ عملاق، تهشمت معالمها، وشحقت عظامها، وتهتكت أوصالها، والتصقت أنسجتها المتهتكة بعضها ببعض عبر نزيّفٍ ممتدّ. المدينة المنكوبة تشبه صدر مدحّنٍ قديم، حاوية من النبض المنتظم، وبينما تنفث الدخان تسعل حتى تبصق دماً على العالم في الأسفل.

هنا بلد النمل الوحيد الذي لم يهنأ يوماً بحبّة سكر! والذي لا يملك حظاً ليسمعه سليمان فلا يحطّمه الجند. نحن النمل الذي تتعدّد أساليب موته، ولا أحد يبالي بصرخاته. فكلما قرأت خبراً عن الأرصاد الجوية يفيد بمنخفض قادم، انخل قلبي على حالنا البائس، يصير الخبر سكيناً يمزّق قلوب الخيام، وينهش قاطنيتها قلقاً.

تساءل، من سيغرقه الطوفان إذا غفت عيناه، ومن سينقذ الصغار، ولا نوح في المدينة؟ أن تمرّن أحداً على غيابك، ذلك أشبه بالتعذيب بتنقيط الماء في زنرانة مظلمة، ثمّة أشباح تعضّ وريدك، وثمة نحل يطنّ في أذنيك يذكرك بالموعد: لا تغف، ينتظرك الكثير من العمل لتنجح! عليك مثلاً أن تقلّل الكلام ليعتاد صمتك. وإذا تكلمت، فقل: لا أحد يستحقّ البكاء. وعندما يُبكيه ما تقول، أخبره أن الدنيا فيها من الأحزان ما يفيض له الدمع. خذ حقك من الحزن كاملاً، لا تكثر بمن يثنونك عن البكاء. واستمع لكل ما ينهكك حتى تنام،

هكذا فقط يمكن أن تمرّ الليلة، ويمكن للغد أن يأتي. ولتتمرّن أحداً على غيابك، ساعده أن يعتاد ذلك. قلّ من ابتسامتك، الابتسامات لها أثرٌ حادٌ يمنع النسيان. حاول أن تغيب عن عينيه ما استطعت، ولا تحضنه عندما تعود، عليه أن يتعلّم أن هناك غياباً لا يعود منه الناس.

تجنّب النظر في عينيه، العيون مرآة القلب، فلا تعطه مفتاحاً لبري شظاياك. واختبره بين حين وآخر، وكلّما قلّ اهتمامه بعودتك، كانت مهمّتك ناجحة. وكلّما اعتاد صمتك وكفّ عن محاولة سحب الكلام بأيّ حديث مجنون، فتلك علامة نجاح. قد يؤلمك ما تعدّه لأجله، ويفيض بك وجعٌ لا تحتمله الجبال، لكن عليك أن تكمل المهمة. عليه أن يتمرّن على غيابك، فمهما بلغت من القسوة، لن يكون ذلك أشدّ وطأة على قلبه من رحيلك للأبد...

حقائبه الثقيلة راوية زمن النزوح...

كل مرّة اضطرّ فيها للرحيل عن البيت، ودّعت الجدران، مسحت برموشها خزانته، وخبّأت الذكريات في محافظ زمنية سرّية، ثم حملت حقائبه الثقيلة ومضت.

لم يعرف أحد ما الذي تحتويه تلك الحقائب! قالت الجارات: إنها تحمل ما اكتنزته من خُليّ عندما كان زوجها غنياً يغرقها بالذهب. وقالت صديقتها: أنا العارفةُ بها، إنها تفتني تحفاً ثمينة لا يهون عليها تركها، وتحرص أن تفديها بروحها. أما أختها، فظنّت أن الثياب الثمينة ومجموعات الأحذية الفريدة أكثر ما يهّمها اصطحابه. وكانت كلّما ألقى الموت بظلاله، ولا وقت للنجاة، استمرّت تحمل حقائبه الثقيلة، وكلّ صباح تلتفت يمنة ويسرة، وتنزوي في خيمتها، تتفقّد كنزها الثمين. قصصه الكثيرة، سترته الجلدية الأنيقة التي أحبّها أكثر من أيّ شيء، فهي هدية أبيه، وأحذيته الرياضية، وهداياها منذ ولادته، تحف تلقّاها تكريماً من مدرسته، وزجاجات عطره الفارغة، وكتبه، ودفاتره، وأقلامه، وقصاصاته، ورسوماته الطفولية، حتى جواربه... تتفقّد كلّ شيء ثم تعيده للحقائب وتقفّلها جيداً، ثم تغطّيها ببطانية ثقيلة لتحميها من أعين المتلصّصين. وكلّما اشتدّ البرد زادت الأغطية، خشيةً على روحه التي تسكن الأشياء من البرد. هكذا ظلّت حقائبه الثقيلة تؤنس وحشتها بينما تكابدُ وطأة رحيله عن القلب.

في صندوق الشاحنة، وبين أكوام من الأكياس وما يشبه الحقائب، يقبع الكاتب ساهماً، وكان لديه بعض الوقت ليجمع ما تيسّر من أشيائه الضرورية وبعض الكتب، ثم الرحيل تاركاً بيت العمر بكل ما فيه من تفاصيل.

يصبح الوقت بلا معنى ولا قيمة حين نقطعه في الهباء. تمضي حيث المجهول، وتحاول أن تتماسك حتى لا يتملكك اليأس، لكن دمعاً يغافلك وينساب بهدوء، تمسحه قبل أن ينتبه أحد، ثم تتظاهر برياطة الجأش وتقول: سوف نهزّ خيمتنا بما يسهّل الحياة قدر الممكن! كأنك تضع عصفوراً في فضاء يحوم به النسور، وتعطيه وعداً بالسلامة!

لطالما كان وصف لاجئٍ مؤدٍ للنفس منذ نكبة 1948، وقد استجدّ لنا لقب نازح، وصف ثقيل على القلب، يطحن رغبة المرء في الحياة. يتعامل الغزّيون مع لقب نازح كأنه وصمة دامية على أرواحهم، هؤلاء الذين كانت لهم

بيوت عامرة بالدفء والحب والخير. لاحقتهم وصمة النزوح بعد أن فقدوا كل شيء. فقدوا بيوتهم وممتلكاتهم وأعمالهم. لم تترك آلة البطش شيئاً إلا ونالت منه.

ماذا يعني الوصول بعد الرحيل من غزة مجبراً نحو الجنوب؟ هذا ما يدور في ذهن المرء طوال الطريق، التي تستغرق ساعات طوال، بينما في الوضع الطبيعي قبل المقتلة، يمكن قطعها خلال ربع ساعة على الأكثر.

هنا تنتظر أقل من خيمة، وأكثر من خيمة. تنظر حولك وكأنها لوحة سورالية تجسّد المأساة. كل شيء جامد، ينشغل الرجال بمطارقهم يدكّون الأرض بأوتاد خيامهم، والنسوة ينشغلن بتفقد المكان الغامض، ويشعرن بالقلق من ليل يأتي في العراء. وبعضهن يجلسن في زاوية مظلمة يبكين قهرهنّ وخساراتهنّ الفادحة.

يبدع الكتاب في وصف نوائب الدهر قاطبة، لكنهم أمام نكبة غزة يتعثرون بأشلاء الضحايا، بالقلوب المنكسرة، بالأمال المحطمة، بالسيقان المبتورة... كل شيء في غزة عثرة يكبو بها كل جواد.

الليلة الأولى في الخيمة أشبه بالليلة الأولى في السجن لبريء حُكم بالموؤد دون أن يقترف ذنباً. تتكالب عليه الدموع والذكريات، حتى تكاد تفتك بقلبه الذي ينفطر حزناً، بينما يحملق في السقف كرفيق وحيد يسامره، ويقصّ عليه رحلة النزوح، الرحلة التي تنقل المرء من بيت إلى خيمة. كأن الحياة السابقة كانت حملاً في أحشاء غيمة، أجهضت حملها باكراً فتناثر في الفضاء تاركاً جنين الحسرة يتعاضم حتى يتتلع الماضي والحاضر والمستقبل.

كل شيء في الخيمة بلا غد، أنت عارٍ تماماً أمام عوامل الطبيعة والزمن، وما تكتبه لتصف البداية يتلاشى كلّما تعمّقت بقلبك أوتاد خيمتك الحادّة. إنك تحمل مطرقة وأوتاداً تغرزها في قلبك، وبينما تنتظر الصباح لتتشغل بمختلف أنواع الشقاء، تداوي الكمد بالذكريات، وتحديث الهواء: هل تذكر حين كان لنا بيت؟

الحرب دائرة لا تنتهي من النزوح والفقْد

عبد الوهاب حمد

باحث ومراسل صحافي من غزة، فلسطين

عدتُ إلى غزة قبل عام واحد فقط من اندلاع حرب الإبادة الجماعية، بعد رحلة دراسية استمرت تسع سنوات خارج قطاع غزة. حصلت خلال رحلتي الأكاديمية على درجة البكالوريوس في إدارة الأعمال من جامعة الشرق الأوسط في قبرص التركية، ونلت الترتيب الأول على دفعتي، وتكرّمت بدرع رئاسة الجمهورية. كما أنهيت دراسة الماجستير في إدارة سلسلة الإمدادات الإنسانية من جامعة ووريك البريطانية.

قبل الحرب، عملت مع عدد من المؤسسات المحليّة في مجالات مرتبطة بتجنيد الأموال والعمل الإنساني. ومع بداية العدوان، عملت مديراً لمؤسسة وطنية فلسطينية، وقدمت من خلالها تدخلاً إنسانياً بسيطاً في شمال غزة في وقت

كان فيه الشمال يعاني من مجاعة حقيقية اضطرَّ فيه الناس إلى أكل علف الحيوانات لأجل البقاء على قيد الحياة.

في اليوم الأول للحرب، نزحت من منزلي الحدودي الواقع شمال غزة إلى جباليا، وسط قصف "إسرائيلي" عنيف وعشوائي من البرّ والبحر والجو. ما زلت أتذكر أول مؤتمر صحفي "إسرائيلي" بعد 7 تشرين الأول/أكتوبر، حين قال وزير الحرب "الإسرائيلي": "لا ماء، لا طعام، لا دواء، لا كهرباء... هؤلاء حيوانات بشرية ويجب أن نتعامل معهم على هذا الأساس"، لم تكن تلك الكلمات خطاباً عابراً، بل إعلاناً لسياسة ممنهجة قادت سكان غزة إلى مستويات غير مسبوقة من انعدام الأمن الغذائي، والأخطر من ذلك نزع الكرامة الإنسانية عن الفلسطينيين، ضمن سياق واضح من التهجير القسري، والتطهير العرقي، وكيّ الوعي.

عشت أياماً لأروي عيون الناس وذاكرة المدينة

كانت الحرب دائرة لا تنتهي من النزوح، والعنف، والفقْد. بقيتُ في جباليا تسعة أيام، ثم نزحت قسراً إلى المنطقة الوسطى مدّة 17 يوماً قبل أوامر إخلاء جديدة دفعتنا إلى مدينة خانينوس. هناك اشتد الحصار، ونفدت الموارد، وحُشر الناس في مساحات ضيقة بلا أدنى مقومات للحياة.

في خانينوس، عشت داخل أحد خيام الصحفيين قرب مجمع ناصر الطبي، أُجريت خلال تلك الفترة مداخلات تلفزيونية باللغة الإنجليزية لتغطية الوضع الإنساني. سيارات الإسعاف لم تتوقّف، والشهداء كانوا يصلون باستمرار، والمستشفى كان يعمل فوق طاقته بكثير، وسط شعور عام بأن النهاية قريبة، لكنها استمرت لأكثر من عامين. خلال هذه الرحلة القاسية، خسرت أكثر من مائة شخص من عائلتي الممتدة، إلى جانب عشرات من الجيران والأصدقاء. لذلك، حين أقول إن ما فعلته "إسرائيل" في غزة هو إبادة لا تنتهي، فأنا لا أستخدم توصيفاً سياسياً أو شعاراً إعلامياً، بل أصف واقعاً عشته، وفقدتُ ما زال يتجدّد يوماً بعد يوم.

في كانون الأول/ديسمبر 2024، واجهت خسارة شخصية أخرى. تدهورت الحالة الصحية لوالدي، واكتشفنا أنها مصابة بسرطان المثانة في مراحله الأخيرة، وكان المرض قد انتشر في جسدها منذ البداية. حاولنا لشهور تأمين تحويلة طبيّة وإخراجها للعلاج خارج قطاع غزة، لكن دون جدوى. تنقّلت بين جلسات علاج مكثّفة ووحدات نقل دم، وكانت تذهب إلى العلاج تحت القصف، قبل أن يخرج المستشفى عن نطاق الخدمة. رحلت والدي بقلب قويّ وجسد أنهكه المرض، بعدما لم تعد المسكّنات قادرة على تخفيف ألمها.

لاحقاً، دُفع السكان بشكل ممنهج إلى مدينة رفح. خلال وجودي هناك، عملت لفترة وجيزة كمراقب طرف ثالث على معبر كرم أبو سالم مع جهة متعاقدة مع الأمم المتحدة. ورغم التحسّن النسبي في دخول المساعدات مقارنة ببداية الحرب، إلا أنها بقيت غير كافية، وكانت المعابر تُفتح وتُغلق بشكل متقلّب.

أتذكر حديثاً جمعتني مع شخص أجنبي قال "إن الفلسطينيين بحاجة إلى أن يقود الشباب بلدهم، وأن يتحرّروا من الاتفاقيات الاقتصادية مع الاحتلال ويكون لهم اقتصادهم وعملتهم الخاصّة." ثم قال بوقاحة إن علينا نسيان

ما قاله الأجداد عن أراضي 1948، والتركيز فقط على الحاضر. لم أوافق! لكنني أدركت كيف يُراد لنا أن نفقد ذاكرتنا، لا فقط أرضنا. بعد اجتياح رفح، نزحنا إلى مخيم البريج في المحافظة الوسطى لقطاع غزة، حيث عشنا خمسة أشهر تحت قصف مستمر، خاصة في المناطق الشرقية. واصلت خلال تلك الفترة عملي كمدير لمؤسسة وطنية تُدعى "جهود". كان تدخلها بسيطاً لكنه كان تدخلاً على الأمن الغذائي للفئات الأكثر هشاشة، إلى جانب مشاركتي المكثفة في مقابلات إذاعية أوروبية لتغطية الواقع الإنساني في غزة.

لاحقاً، انتقلتُ إلى دير البلح، وبدأت عملي كمراسل مع TRT World، ثم مع TRT Haber. في عملي الصحفي، اعتمدت على نقل الواقع كما هو، من داخل مخيمات النزوح، مسلطاً الضوء على المجاعة، وانهيار النظام الصحي، والسياسات التي تُدار باسم "السلام"، وكيف يراها الفلسطينيون على الأرض.

ما زلت مستمرّاً في عملي، لأن ما يحدث في غزة ليس مجرد حرب، بل إبادة مستمرة، وحياة تُنتزع يوماً بعد يوم، وتستحق أن تُروى بصدق، وبأقل قدر ممكن من الكلمات، وأكثر قدر ممكن من الحقيقة.

غزة حين ينطق الجرح

شادي الكفارنة

كاتب وأكاديمي من غزة، فلسطين

العيش في غزة ليست حكاية حزينٍ عابر، بل هي جرح مفتوح على صدر الزمن، ينزف كل يوم صبراً ولا يموت. في غزة، البيوت تُقصف قبل أن تُكمل أحلامها، والأطفال يكبرون دفعةً واحدةً تحت هدير النار. فعندما نشعر بأننا عاجزون عن العيش بسلام، فاقدون للأمان، نكون بذلك تحت سواد حرب الإبادة الجماعية، غير قادرين على مواصلة حياتنا اليومية. لقد قضمنا الظروف حتى أصبحنا عاجزين عن تنفّس الهواء النقي وقد صار الهواء ملوّثاً بغبار المواد المتفجّرة الممزوجة بدمائنا وأشلاننا.

لقد نسينا أسماءنا واهتماماتنا، وما نفكر فيه الآن فقط: كيف ننجو بحياتنا؟ بتنا خارج حسابات العالم كله، حيث يلاحقنا التطهير العرقي بالطرق المتنوعة وبكل أشكال الموت: إما قصفاً، أو برداً في الخيام، أو حلماً في المنام، أو قهراً في اليقظة، أو سجناً في المعتقلات... حتى قبورنا صارت ضيقة في تجربة الحرب المميتة التي عشناها. ففي غزة تغيرت مراسم الدفن لتكون القبور في حفر صغيرة ضيقة لا تتجاوز السنتمترات في العرض والطول لا تتسع امتداد أقدام المتوفّي، فيكون في حفرة مضغوط الجسد محشور الأطراف مكدّماً على حافة الحفرة مركزاً بحفنة من الرمل.

فاقم فقدان الأمل خيبتنا وأضعف قوة مواجهتنا في تحقيق أحلامنا وآمالنا وطموحاتنا وسكينتنا النفسية. "من خيبة إلى خيبة" هو المعنى الموازي لـ "من خيمة إلى خيمة"، ففي المعنيين معاناة وضياح. لقد عشنا الاثنين معاً خيبةً وخيمةً، فالخيبة تلاحقنا والخيمة تضيق علينا حتى أصبحنا في حالة تيه نتقلّب بينهما. فوجدنا في الخيمة

هو أكبر خيبة عرفناها منذ ولدنا، ونحن نعيش في إيوانات الجحيم!

في غزة قصة وجع طويلة، كُتبت بجبر النار، وتُتلى على مسامح الصمت العالمي، تمشي مثقلةً بالغياب، لكنها تترك خلفها أثر الحياة حيث مرّت القذائف. في غزة الألم ليس طارئاً، إنه ساكنٌ قديم، يعرف الأزقة ويحفظ أسماء الأطفال. البيوت تُهدم، لا لأنها حجارة، بل لأنها تحفظ ذاكرة الضحك، فإراد للذاكرة أن تُمحي.

غزة أمّ تلتف أبناءها بالخوف كي لا يراهم الموت فجأة. ليلها ليس ليلاً، بل امتحان بقاء، ونهارها انتظارٌ طويل لوعدي لا يأتي حتى وإن كان تحت الركام. لا تنطفئ الحياة، بل تتخفى، وتجمع أنفاسها لتنهض من جديد. كلما أثقلت بالخراب، ازدادت خفةً في الروح، لأن ما لا يُكسر في الإنسان هو المعنى.

في غزة، الموت يمرُّ كثيراً، لكن الحياة تُصرُّ أن تعود، وإن كنا كلنا ننتظر دورنا في قدوم موت يقبض أنفسنا من أجسادنا، وينزع أسماءنا من قائمة انتظار الموت. رحم الله من مات، ومن بقي على قيد الحياة لجولة أخرى من الموت.

يوميات الإقامة في غزة بين الحرب ونزيف الألم...

يافا أبو عكر

مراسلة صحافية من غزة، فلسطين

وحيدة هنا كغزة، بلا شيء، لأول مرة أشعر بالغرابة، بالوحدة القاتلة. أشعر بعجز ينهش القلب وكأنني لم أعد قادرة حتى على إعطاء بصيص أملٍ لأحد. أخاف من الفقد كثيراً، وأخاف التعلق بمن أحب أكثر... فأهرب منهم أكثر، كأنني أحميهم من وجعي أو أحمي نفسي من رحيلهم. وثقت الإبادة بقلم يرتجف، وبصوت مخنوق، وبدين ترتعشان، وعقل تائه. أبكي بلا دموع، فهنا نوع آخر من البكاء، بكاء القلب. كنتُ جبلاً، واليوم أشعر أنني أسقط قليلاً قطرةً قطرةً، صمتاً بعد صمت في لحظات ضعفي. كلُّ ما أرغبه هو البكاء، لكنني لا أستطيع وليتني أستطيع. كم أتمنى أن تتفتت هذه الدموع المتحجرة في القلب الذي ذاب من مرّ الحرب والقهر.

أعترف برغبتني في الانعزال عن هذا العالم، عن كل شيء. كم كنتُ أرقاماً عند الجميع، وكم صار شهداؤنا وقصصهم أرقاماً. لكن والله نحب الحياة، لكننا ما استطعنا إليها سبيلاً! هنا، في هذه البقعة الممزقة المليئة بالدماء، نشعر جميعاً بالوحدة... أمام عيون العالم كلّه، أمام الكاميرات والبيانات الكاذبة وزيف وقف إطلاق النار. الطفل زاهر ناصر شامية طفلاً لم يتجاوز عمر البراءة. خرج يبحث عن نجاة فلم يجد إلا رصاصهم. أطلقوا عليه النار وتركوه ينزف وحده. والأشدُّ إيلاًماً أن الدبابة مرّت فوق جسده الصغير،

دهسته كما لو أنه لا روح فيه. كما لو أن طفولةً كاملة لا وزن لها. هرسوه بلا رحمة، وبلا خوف من عدسة، وبلا خشية من صوت، كأن غزة أرض مباحة للقتل فقط.

قراءة في وجه حبيبتى رهفت

رهفت كانت تعيش حياة بسيطة، لكن الحرب أخذت منها كل شيء فجأة. وجدت نفسها يتيمة الأب والأم، بلا سند، وبلا ظهر، وبأربعة أطفال ينتظرونها كل صباح. أربعة وجوه صغيرة لا يعرفون أنها تبكي كل ليلة بصمت حتى لا يرونها منهارة. اليوم صارت رهفت الأم والأب في وقت واحد بعد فقدانها أمها مريضة السرطان. وبعد أقل من شهر استشهد والدها عندما ذهب ليجلب شيئاً لهم من البيت، فارتقى شهيداً ولم تستطع وداعه ولا انتشاله حتى هذه اللحظة. لا أحد ينظر لوجعها، ولا أحد يخفف عنها. تمرُّ الأيام ثقيلة عليها، تحارب وحدها، وتقاوم وحدها، وتخاف من المستقبل وحدها.

مواصي البلاد وحصار بلا بدايات ونهاية

البدايات والنهايات ما هي إلا مسميات. في مواصي البلاد لم يعد مهماً ترتيب الأيام والأعوام. نازحون يلتحفون الألم، وريحٌ تهوي بأحلامهم في غياهب المجهول، وقذارة الحرب، واستغلال الفجار وظلمهم. لا تدعوننا في الخيام، ولا تدعوا لنا بالثبات، ولا تقولوا قد كان عاماً وها هو جاء عام آخر. دعوا أعوام الله، وكونوا أنقياء أتقياء فقط. نحن هنا أموات، أموات فقط يا دعاة الإنسانية!

في وقت ينتظر فيه المرضى جرعة دواء أو محلولاً ينقذ حياتهم، تُغرق "إسرائيل" قطاع غزة ببضائع ترفيهية وهواتف حديثة، بينما تُغلق المعابر أمام الأدوية الأساسية، والمحاليل الوريدية، والمضادات الحيوية، وأجهزة غسيل الكلى، ومستلزمات العمليات الجراحية... إنه مشهدٌ يلخص قسوة الحصار، وحقيقة العجز الذي يواجهه القطاع الصحي كل يوم.

وداع الشهداء

بين الجثث المجهولة تقترب بخطى مرتجفة، تبحث عن ملامح من تحبُّ فلا تجد وجهاً، ولا تجد اسماً... لكنها ترى الخاتم في يده فتعرفه فوراً. تسقط على الأرض، وتبكي بصوت مخنوق، فقد عرفته من وعد لم يكمل الحياة. حتى الحُب في غزة يُقتل، وحتى الخواتم تُستخرج من بين الرماد بدل الزهور. رحل متمسكاً بعهدة لها، فلم يخلعه في الحرب، ولا في الموت. كم قاسية هذه البلاد حين يصبح الخاتم دليل هوية، وحين يصير الحُب شاهداً على المذبحة، ويبقى الخاتم وحده يروي ما تبقي من الحكاية!

في غزة

لا شيء يشبه الأشياء هنا، حتى الحزن له هيئة أخرى أنقل من أن يُحمل، وأصدق من أن يُخفى. في غزة، ينام

الناس على أصوات لا تشبه الليل، ويستيقظون على صباح لا يشبه الصباح. هنا تُقاس الحياة بنبضٍ منقطع، وتُوَزَع الأيام على شكل نجاة مؤقتة. غزة التي تُركت وحدها، ما زالت واقفة. مدينة كلِّما ظنَّ العالم أنها سقطت، رفعت رأسها من تحت الركام وقالت: أنا باقية...

مراسم وداع مؤلمة للطفل عطا مأمون مي "أبو شفق"، البالغ من العمر ستة أعوام، بعد سقوطه في بئر مياه بعمق ستة أمتار شمال غرب مدينة غزة. قبل الحرب سافر والده لعلاج جدته في مصر، واستشهدت أمه في بداية الحرب، وأصيب الطفل وإخوته. وقبل أربعة أيام عاد من رحلة نزوح جنوب القطاع ليلاقي مصيره المأساوي نتيجة تداعيات الحرب وتدمير البنية التحتية وانكشاف آبار المياه والصرف الصحي التي تهدد حياة الأهالي، وخاصة الأطفال.

عامٌ آخر للحرب يمرُّ من هنا

عام يطلُّ على غزة وهي متعبة لكنها ما زالت واقفة. ندخل هذا العام ونحن مستمرُّون في التغطية منذ عامين من حرب الإبادة. لم نتوقَّف لأن الوجود لم يتوقَّف، لكننا باقون لأن الأمل لم يُهزم. نواصل عملنا بإيمان بأن الصوت الصادق يصل ولو بعد حين، وأن الحقيقة لا تموت مهما حاولوا خنقها. نبدأ هذا العام لنقول للعالم بوضوح إن غزة ما زالت محاصرة، وغزة ما زالت تنزف، لكن غزة أيضاً ما زالت تُقاوم بالحياة وبالصبر، وبأناسها الذين يتمسكون بالعد على الرغم من كل شيء. هذا صباح غزة، والقادم أعدل والفجر لا بدُّ أن يمرَّ من هنا.

الناس تسقط واحداً تلو الآخر بإنفلونزا خانقة تشبه كورونا، وحمى تحرق الجسد، وسعال يقطع النفس، وإرهاق يكسر العظم. عامان من الحرب حوَّلانا لأجساد هزيلة تعيش على المعلبات والحرمان، بلا مناعة، ولا علاج، ولا قدرة على المقاومة. نمرض لأننا جائعون، ولأننا محاصرون، ولأن الحرب لم تترك لنا سوى أجساد تتآكل ببطء. في غزة حتى المرض سلاح، والموت لا يأتي دفعة واحدة، بل يتسلَّل يوماً بعد يوم، وليلة باردة تلو أخرى على من تُركوا في الخيام، يتقاسمون الخوف مع أصوات الانفجارات ونسف المباني السكنية. في غزة، بعد ثلاثة أيام فقط من زفاف لم يجفَّ فرحه بعد، تحوَّل الحلم إلى مأساة مفجعة. رياح قوية أسقطت جداراً فسقط فوق خيمة الزوجين، فارتقت العروس في لحظة قاسية دون أن تأخذ من الحياة سوى اسمها، أما العريس فخرج حياً ليحمل موتها وحده مكسور النفس يواجه فاجعة لا تُودَّع لأن الحياة نفسها لم تبدأ بعد. وفي المشهد ذاته من القسوة، اندلع حريق داخل خيمة أخرى بسبب إشعال نار للتدفئة من شدة البرد، فاستشهدت أمٌّ وطفلها وأصيب آخرون بحروق. في غزة، الموت لا يأتي بشكل واحد: مرَّة يسقط جدار، ومرَّة تشتعل نار، لكن السبب واحد—خيام هشة، وبرد قاتل، وحياة تُسحق كلَّ يوم... أصوات الأطفال وبكاؤهم تُسمع من بين الخيام ونحن نغرق. خيام النازحين تمزَّقت، وطارت تحت زخات المطر، والبرد ينهش أجساد الصغار، ولا أحد يشعر بنا، إلا أنت يا رب المستضعفين. تخيلوا ليلاً قاسياً ومطراً لا يرحم، وقهراً يكتم صدورنا... هل تشعرون بنا؟ هل يصل وجعنا إليكم؟

في غزة تستطيع أن تشتري شوكلاتة، لكنك لا تجد مضاداً حيوياً، ولا قهوة فاخرة على الرُّف، ولا قطرة دواء في

المستشفيات. الاحتلال لا يسمح بدخول الحياة، فقط يسمح بدخول الوهم. يعرض علينا رفوفاً ممتلئة ليُخفي بطوناً فارغة، ويمدُّنا بالكماليات ليمنح أبسط مقوّمات البقاء. المستشفيات تعمل كالمشافي الميدانية في قلب الكارثة: لا شاش، ولا أدوية، لا مُسكّنات، فقط أطباء يقاتلون بالمعرفة وحدها، وأمّهات ينتظرن معجزة على باب غرفة الطوارئ. هندسة تجويع ممنهجة هي تجميل لوجه الحصار بصورة حياة طبيعية زائفة، وترويج كاذب لعالم لا يرى وجع المحاصرين، بل يكتفي بمشاهدة رفوف السوبرماركت وكأنها دليل البقاء. فليعلم الجميع أن غزة محاصرة، وهم يبيعون صورة حياة لا وجود لها ويتركونا ندفن الحياة بأيدينا... لا صمت هنا في غزة، فقط انفجارات، وعمليات نسف مستمرة حتى هذه اللحظة تهزُّ الأرض وتكسر ما تبقى من أمان وكأن المدينة تعيش على حافة الانفجار الدائم.

ما زلت حتى هذه اللحظة غير قادرة على استيعاب ما رأيته، كيف يمكن لإنسان أن يفعل هذا بإنسان؟ أيُّ قلبٍ يمتلك هؤلاء المجرمون ليردُّوا جثامين الشهداء مكبّلة الأيدي، منزوعة الأحشاء، وعليها آثار تعذيب وحشي؟ المنظر لا يُحتمل! حالة من الخوف والرعب انتابتني وغصّة حقد على هذا العالم الصامت الظالم أعداء الله. مجرمو حربٍ فقدوا كلُّ ما يمثُّ للإنسانية بصلة. إلى العالم الذي يدّعي التحضُّر: انظروا جيداً إلى وجوه الشهداء التي شوَّهها القيد، وتعلّموا معنى الوحشية الحقيقية. أعادوا جثامين الشهداء اليوم مكبّلة الأيدي، خالية الأحشاء، وكأنهم أرادوا أن يسرقوا حتى ملامحهم الأخيرة... ومع ذلك، فما زالت الأرض تناديهم بالشهداء. هنا في شوارع غزة الركام ما زال يتكلّم، ورائحة الموت تملأ المكان، في كلِّ زاوية حكاية، وفي كل حجر شهيد. رأيتُ رجالاً وفي أيديهم أدوات بسيطة يحفرون بين الأنقاض، ينادون أسماء أبنائهم علَّ صوتهم يردُّ من تحت الردم. ما زال الآلاف هنا يبحثون عن رفات أحبّتهم، وعن عظام أو بقايا ثوب يدفنونها بكرامة... رأيتُ امرأة تجلس قرب ركام بيتها تحضن صورة غطّاهها الغبار، وتقول: "هذا ابني وأحفادي وزوجته، لو بس الأقي عظامهم أدفنهم بكرامة." ثم تنظر إلى السماء وتبكي بصوت يرتجف بين الدعاء والخذلان. الحرب خلفها قلوب مكسورة، وبيوت بلا أبواب، وأرواح تنتظر أن تُدفن لتستريح.

في حرب الإبادة تضيق الرؤيا والعبارة معاً

فداء زياد

كاتبة من غزة، فلسطين

منذ فترة وأنا مصابة بمتلازمة "شلل لغوي"، تحوم الأفكار في رأسي كجنين ميّت لا يقوى على إجهاض نفسه. صارت التساؤلات عبثاً بعد أن كانت لعبتي المسلية لأول مرة. لا يغيب عن ذاكرتي، بعد نهاية تسليم الأسرى في شباط/فبراير 2024، في مدينة رفح... انتهى الحدث، وما لا ينتهي من الذاكرة في تلك الليلة المرعبة بكل معاني الكلام.. ما قاله لي ابن أخي، وهو شاب في التاسعة عشر من العمر: "أنا خائف اللي كُنّا عايشينو قبل الإبادة هو الحلم وهذا هو الحقيقة!" هذه الجملة شكّلت لي رعباً كبيراً.

خلال أسبوع زرت المدينة، غزة، ثلاث مرّات وما زال يرافقني الشعور الثابت منذ أن تجمدت الإبادة، فهي لم تتوقّف: "اشتقتك بس خايفة". اتّفقت والكثير من الأصدقاء أن أعطاباً عميقة أصابت ذاكرتنا الزمنية، بل إحساسنا بالوقت ذاته. الجميع ينسى ما كان عليه قبل هذا، ولا أحد يمتلك حقّ تخيّل شكل المستقبل. نحن عالقون في زمن بلا هيئة، لا نعرف شكله أو توصيفه. حتى قدرتنا على تصنيف الزمن في الذاكرة تعطلت. نعيش زمناً متقدّماً بذاكرة قديمة، وذاهبون إلى غد لا نعرف هل هذا هو الغد؟

زرت المدينة ثلاث مرّات لأسباب كثيرة، واحد منها أنني بحاجة لنفي أو تأكيد شعور زيارة المقبرة. الحقيقة أننا عالقون في تشكيل مصعّر لمفهوم "الحشر"، مقادون إلى مصير مجهول، قادمون من ماضٍ سقط حاضرا منه، ونراقب ما سيأتي من ثقب صغير اخترعت له اللغة اسماً، هو "الأمل". صدّقنا هذه الكذبة الصادقة، ولا حيلة لي لتجاوز كلّ هذا سوى الأغنيات التي تدور في رأسي ومصدرها سماعة الأذن، ورأسي الذي أمنحه لتيار الهواء القادم من النافذة الصغيرة كي يطير منه ثقل التساؤلات.

واللغة التي باتت واقفة بعيداً جداً، أتسوّلها فتظهر أمامي بأنياب وحش ملطّخة بدم الزمن الملتهم من النافذة الصغيرة ذاتها في العربية المكدّسة بحوارات الرّكّاب جميعاً ك"الصاعدين إلى الله ننسى الأمل ومنتظر النهاية". وحتى كذبة اللغة أن "الرؤيا تتسع كلّما ضاقت العبارة" لم تعد صادقة. ضاقت الرؤيا وضاقت العبارة في أن معاً. لا العبارة تسعفك ولا الرؤيا نجت من رحلة انتظار الصعود. فاللغة هنا مدرّبة على الافتراض، وكلّما حاولنا فهم الزمن أسرع في التهامه، وحوّلته إلى استعارات لامعة، تقنعنا أننا فهمنا ما لا يَحتمَل. هل للغة أن تعيد الزمن إلى حجمه البشري، إلى دقيقة لا تكسر المعصم، إلى نبضة يمكن احتمالها وصمت لا يدّعي الحكمة؟ هل لها ألاّ تعدنا بشيء، بل تمسك بنا كي لا نسقط أكثر في هذا الزمن الذي بلا اسم؟

غزة كبحرها الأزرق وستبقى كذلك

سامية الغصين

أكاديمية ومحامية من غزة، فلسطين

لم تتعرّض غزة فقط لإبادة متوحّشة طوال العامين الماضيين التهمت كلّ ما في طريقها من بشر وحجر وشجر، ولكنها تعرّضت لنوع آخر من الإبادة، إبادة معنوية استهدفت صوت غزة الأصيل المعبر بصدق عن كلّ أوجاعها وآلامها ومخاوفها. لقد واجه أهل غزة إبادة لم تكن في الحسبان، ومواجهتها لم تكن شيئاً سهلاً مطلقاً، حتى لحظتنا هذه. لقد غيّب صوت غزة الحقيقي، الذي يئنُّ بأوجاع الناس وآلامهم ومعاناتهم المستمرة، من: الفقد والنزوح والتشريد والتجويع والترويع، وشعورهم بالخذلان والتخلي والهجر والاستغلال. ولكن وجعهم الأكبر كان

يتمثّل في عدم سماع صوتهم وتجاهله ببرود قاتل، والتعامل معهم من خلال أسطرتههم المبالغ فيها، والتي حجبت واقع غزة الحقيقي المرير.

وعلى الرغم من مشاهد الأجساد الغضة التي دُفنت تحت أنقاض منازلها، والأشلاء التي تناثرت على شاشات التلفاز على مدار اللحظة، والوجوه التي فاض منها الحزن والألم على ما أصابهم وأصاب مدينتهم، والأمعاء الخاوية التي تعرّضت للتجويع حتى الموت... إلا أن صوت غزة ظلّ مغيباً، وحضر بدلاً منه صوت مزيف تطرب له الأذان التي لم تستجب لصرخات أطفال غزة النازحين الجائعين المرضى المنهكين الذين حُرّموا من التعليم والصحة والطعام، وقبل هذا كلّهُ حُرّموا من الأمن والأمان. حضر صوت بهيٍّ وممتع يتبني البطولة موتاً لا حياة، صوتٌ استطاع أن يحوّل معاناة أهل غزة إلى مئات الملايين من الدولارات دون أن يصل دولار واحد منها لأصحاب المعاناة في غزة.

حضر صوت قويٍّ ومهيمن أخرج صوت المعاناة الحقيقي، وغاب صوت غزة، مثلما غابت غزة بأكملها وبماضيها وحاضرها ومستقبلها في دهاليز المجهول والتيه في هذه الحرب المجنونة. من استمع لصوت غزة المتوجّع كانوا قلّة قليلة، ولكنهم فعلوا ما هو أسوأ من الإبادة المعنوية لأهلها! استمعوا بمنطق الشفقة والعطف على أهل غزة باعتبارهم ضحايا بئسسين لأصحاب حقوق. وشتّان ما بين هذا وذاك! أن تستمع بمنطق الشفقة، فذلك لا يعبر عن إنسانية، وإنما عن استعلاء وفوقية، وهي محاولة زائفة غير صادقة لمساندة أصحاب حقوق مشروعة ومساعدتهم. وهي محاولة تجملُ أمام مشهد يعجُّ بالأكاذيب والألعيب والمعاناة والفقد والدمار والموت بكافة أشكاله، إنه مشهد بشع بالفعل.

أنا وإيلين والجرح الأنيق

وقفت أمامي الطفلة إيلين، ذات الخمسة أعوام وعلى وجهها من الناحية اليسرى أثر جرح يمتدُّ من أسفل عينها حتى منتصف وجنتها، تطلب مني قطعة بسكويت. أما أنا فكان نظري يتركز على جرحها الأنيق، الناتج عن نجاتها من قصف "إسرائيلي" لمنزلها في شمال غزة، فقدت فيه والدها وشقيقها وعدّة أفراد من عائلتها، ونجت منه بأعجوبة هي ووالدتها التي لا تزال شابة في مقتبل العمر. وعادت للعيش مع أهلها هي وإيلين. براءة الأطفال تقف إيلين أمامي حافية القدمين، وشعرها القصير المبعثر، وتعيد سؤالها: "هل عندك بسكويتة؟" طفلة بخمس سنوات من عمرها تطلب قطعة بسكويت، فأجبتها: "لا!" فأعادت سؤالاً آخر: "هل عندك رز؟"

فأجبتها: "لا!" فأعادت سؤالاً ثالثاً: "طيب عندك خبزة؟" ياه يا إيلين! البيت فارغ يا طفلي لا يوجد فيه شيء للأكل.

المجاعة تضرب أنحاء غزة بأكملها، والطعام شحيح جداً وأسعاره مرتفعة جداً، والناس تتساقط في الشوارع من

الإنهك والإرهاق الناتج عن التجويع والعطش. كيلو الدقيق الواحد تجاوز سعره 120 شيكلاً، بينما عائلات بأكملها تُدفن تحت أنقاض منازلها وهي جائعة أيضاً. أطفال نرى هياكلهم العظمية من التجويع الذي يتعرّضون له. غزة جائعة لا تجد قوت يومها، ولكن هذا كلّه غاب وغيّب بقسوة فظيعة.

وبينما منظر إبلى لا يزال في عقلي، أعلّق على أحد المواقع الإلكترونية بأننا نتعرّض لتجويع في غزة، ولا نجد طعاماً لأطفالنا. فتصدّى للتعليق على كلامي فتاة عربية، من اللواتي أظهنّ يعشن غزة الأسطورة لا غزة الإنسانية، وتقول لي: "إيه؟ هو أنت عايزة تأكلي يا أم بطن؟ مجاعة إيه؟ الناس في غزة مش بتجوع." لم يكن يليق بمديني الفاتنة أن تلقى هذا المصير من التغييب والتجاهل ومصادرة صوتها وقمعه وتخوينه وإسكاته وهي التي تقاتل بشراصة من أجل النجاة والحياة والحب. غزة ليست أسطورة. وغزة ليست خرافة. وغزة ليست مدينة للموت. وغزة تعشق الحياة وصوتها جميل وصادق وبهّيّ، مثل بحرها الأزرق وستبقى كذلك.

فكرة مرعبة أن تنظر في عيون الغزّي فترى قلبه نجياً محمود

كاتبة وشاعرة من غزة، فلسطين

إن أشدّ ما يفتك بأرواحنا في غزة اليوم هو الإدراك المسموم بأن الاستقرار بات خرافة لن تتحقّق لسنوات طويلة. نحن نعيش في مفارقة زمنية مرعبة، فالعالم يتقدّم، ونحن لا نكتفي بالوقوف مكاننا، بل ندفع قسراً للعودة إلى نقطة الصفر في كلّ مرة نحاول فيها النهوض جزّاء سيادة الاحتلال حتى على التفاصيل النافهة. لقد جردنا من سيادتنا على أبسط تفاصيل يومنا. فحتى الرغبة في حياة كريمة، كالحصول على غسّالة تعمل بالطاقة الشمسية ليست قراراً فردياً، بل هي رهينة مفاوضات سياسية وقرار أمنيّ خلف الحدود. عندما تتحكّم قوة خارجية في نوع الحياة التي تُصلح بها عثراتك، فإنك لا تعيش حياة أصلاً، بل تؤدّي دوراً في مسرحية انتظار لن تنتهي.

الاستثمار في المجهول... لقد أنهكت أرواحنا من فكرة البناء المؤقت. إننا نواجه معضلة وجودية: هل نشترى أثاثاً لرتاح اليوم ونعجز عن نقله غداً؟ أم نرمّم جداراً يسندنا الركام ونحن نعلم أن الأرض ليست لنا أو أن السماء قد تمطره ناراً في أيّ لحظة؟ هذا الرفض الكوني لكلّ محاولة تحسين هو نوع من التعذيب النفسي الممنهج الذي يحوّل الطموح إلى عبء، والتفكير في المستقبل إلى نوع من الجنون. هذا عداً أن المجاعة التي غادرت البطون واستوطنت الروح، استهلكت مدّخرات الناس. لكن الفاجعة الحقيقية ليست في جيوبنا الفارغة، بل في انسداد أفق التعويض، في بلد دُمّرت فيه البنية التحتية قبل البشر، حيث يصبح البحث عن عمل ضرباً من الوهم. وذلك أننا لا نعاني من بطالة عابرة، بل من اغتيال شامل لفرص الحياة. ونعاني حتى من خديعة المساعدات ووجع القهر المتحوّل، أي نعم أوقفت المساعدات صراخ الأمعاء الخاوية، لكنها لم توقف النزيف النفسي! فالمساعدات التي تصل لغير مستحقّينها، والحلول التي تكتفي بتقديم رغيف الخبز وتتجاهل الكرامة الإنسانية، هي في الحقيقة تُطيل أمد المأساة ولا تنهئها... حتى بات الهروب هو الأمل الوحيد ويفشل في كلّ مرة، ما يحوّل غزة إلى زنزانة جدرانها

من يأس وسقفها من ترقب. إننا لا نخشى الموت بقدر ما نخشى بقاءنا على قيد الحياة دون حياة.

منحازة للإنسان المتألم المخدول في بلده، المنسي من العالم، لأنني اليوم مثله في وطني، حيث تنهار الجغرافيا ولا ينهار التاريخ، نعيش فصولاً تشبه تلك التي وُصفت عند أفول الدول. هنا، في زمن الإبادة والقهر، يختلط الصدق بالكذب، ويغدو الجهاد في أعين البعض مبرراً للقتل، وتتداخل المعاني حتى يضيع التقدير ويسوء التدبير. في لحظات الضياع هذه، يبرز على السطح المتاجرون بالقضية، قارعو الطبول والمزايدون، بينما يتوارى الحكماء والزاهدون خلف جدران الصمت الموحش. تتكشف الأقنعة في أزقة المدن المحاصرة، حيث يسود الرعب ويلوذ الناس أحياناً بغير راياتهم، وتعمُّ الإشاعة التي تمزق النسيج الواحد. نرى الوجوه المريبة تتصدّر المشهد، بينما تغيب الوجوه المؤنسة التي ألفتناها في دروب الثورة الصادقة. يشتدُّ الانتماء للفصيل والقبيلة، بينما يغدو الحديث عن الوطن الواحد الجامع ضرباً من ضروب الهذيان في ظلّ ضجيج الخطباء الذين يتقاذفون تُهم العمالة والخيانة.

في هذا الزمن تحوّل الوطن في أعين المتعبين إلى محطة سفر أو مشروع هجرة مؤجل. تتحوّل بيوتنا التي هُدمت إلى ذكريات، والذكريات إلى حكايات تُروى للأبناء في المخيمات البعيدة. نرى المقنن يتدبّر أمر رحيله، والمبادر يحصّن ثروته، والكُل في حالة تأهب وانتظار، كأن الأرض ضاقت بما رحبت. لكن، وعلى الرغم من غربة العاقل فينا، وضياع ملامح الوجوه، وشخّ الأحلام الذي يقتلها الواقع المرّ، يظلُّ الأمل فينا يرفض الموت. فبينما يرتفع صوت الباطل في المحافل الدولية، ويخفق صوت الحقّ تحت الركام، ندرك، نحن الذين التصقنا بترابها، أن الحقائق ربما يمكن أن تلخّص وطناً، ولكن الهوية أعمق من صراعات المنجّمين والمنافقين.

إنها سردية الانهيار الذي يحاول أن يبتلعنا، لكننا في كل مرّة نللم بقايا الذكريات لنصنع منها وطناً لا يقبل الرحيل، وحتى لو تحوّلنا جميعاً إلى مشاريع مهاجرين، تبقى فلسطين هي المسكن الأخير. لن يبلغ وعيك هشاشة قلوبنا، بعد أن عدنا من العمر بخفي حنين، وقد فقدنا نصف عائلتنا وثلث أصدقائنا، وأكلنا الشوق إلى حياتنا السابقة، وأكلت النجاة عظام صدورنا.

في غزة، الوضع النفسي أثقل مما يبدو للبعيد. الحرب لم تمسّ فقط البنية والجحر، بل مسّت الداخل. ذلك الجزء الذي لا يراه أحد ولا يُوثّق في نشرات الأخبار. قبل الحرب كان هناك مرضى نفسيون يحتاجون دواءً ثابتاً ليقدروا على مواصلة حياتهم، وعندما انقطع العلاج عن كثير منهم لم يحتملوا التراجع الكبير في حالتهم. بعضهم انتهى به الأمر إلى الموت، وبعضهم فقد السيطرة على نفسه لأن المجتمع لم يكن مهيباً لاحتوائهم أصلاً. الآن تغيّرت الصورة: لم يعد المرض النفسي حالة محدودة تُذكر، بل صار شكلاً طبيعياً من إرهاق طويل عاشه الجميع تقريباً. التحدّث مع النفس، والانفعال المفاجئ، وفقدان الشهية أو النوم.. كلّها أصبحت ردود فعل متوقّعة وليست استثناءً. حتى فقدان الذاكرة لم يعد أمراً نادراً، فقد سُجّلت بعض الحالات حتى أن بعضها تمّ الحديث عنه أوّل الإبادة. هناك قضايا نفسية لا يتوقّف عندها الناس كثيراً،

ليس لأنهم لا يهتمون، بل لأن ما حولهم من أحداث أفسى وأقوى من القدرة على الانتباه لكل التفاصيل. الأولويات تغيرت بفعل البقاء.

مقهى في خيمة، وقهوة، وفتاة جميلة تروي الزمن المفقود على البحر

جلست في المقهى، أو في الخيمة التي تدعي أنها مقهى، لأتابع محاضرات الماجستير، وطلبت قهوتي المعتادة، قاسيةً وثقيلةً، لكنها لطيفة على قلبي. لم يكن هناك أحد سواي... حتى دخلت فتاة تحمل ملامحها كل مقاييس الجمال الممكنة، جميلة جداً. ابتسمت لي، وجلست على الطاولة المقابلة، بينما انشغلت بين المواقع وإيميلاتي والفييس بوك، دون أن أشعر بمرور الوقت. فجأة سمعت صوت ضرب الطاولة، رفعت عيني لأجدها تضرب الطاولة بغضب، وتتكلّم، ثم تضحك. في البداية ظننت أنها ترتدي سماعات، لكن الأمر لم يكن كذلك... كان أمامها كرسيّ فارغ، منغمسة في حديث جدّي مع فراغ يجلس أمامها. شعرت بالحزن عليها، لكنني أكملت عملي. كلنا نحمل صراعاتنا الداخلية، كلنا مرضى الآن. حتى طلبت من صاحب المقهى فنجانين من القهوة، وضعت فنجاناً لها وفنجاناً للكرسي المقابل لها. صراحة فقلت وتوتّرت واخترت طاولة وراء آخر المكان وجلست بهدوء لم تلاحظه هي. شعر صاحب المقهى بخوفي وتوتري، فبدأ يخبر الصبي لديه القصة بصوت عالٍ لأسمع: هذه الفتاة قريبته، تأتي كل يوم وتتناول القهوة مع زوجها المتوفّي! وفي حياتها الطبيعية هي بخير، إلا أنها ما زالت لا تعترف وتنكر موته، فهي اجتمعت به بعد صراع لسنوات بين العائلات، وتزوّجا في الإبادة وفقدته في الإبادة. فتاة خريجة جامعة وناجحة جداً في حياتها، إلا أنها مكتملة حياتها على ذلك النحو، تشرب القهوة معه يومياً. في كل شبر في غزة، قصة يجب أن تُحكى. فالبشر لا ينهارون حين تُحرق مدنهم فقط، بل حين يُحرق الإيمان بالآخر، وبالْحُبِّ، وبالْحياة نفسها.

هل تبدو الكتابة عن الإبادة صعبة؟

فاطمة قويدر

كاتبة من غزة، فلسطين

هذا السؤال لا أستطيع الإجابة عنه بمعزل عن الإرادة كون الكتابة لا يجب أن تترك لقلم الضحية، فالضحية دورها الاستعطاف والاستغاثة، ولا يمكن تصوير المشهد الغزّي كاملاً على أنه قائم على دور الضحية دون أن يقَدّم نموذجاً حقيقياً للثائر الذي اجتمعت عليه قوى العالم كلها وخذلان بني جلدته ودينه فصار الضحية. لم تصنع "إسرائيل" الضحية في غزة وحدها. "إسرائيل" امتلكت القوة المفرطة لصناعة نموذج قائم من التمرّد على الطبيعة. المسخ الحقيقي الذي يجب أن يدفن رأسه في الرمال، يوارى صفعات الموت صمتاً ويعترف بقوتها، وبحقّها في امتلاك هذه القوة، يقبل وجودها حتى لو كان هذا الوجود يهدّده، هكذا ظهر مفهوم الضحية في مشهد غزة.

الكتابة عن الإبادة لا تبدو صعبة، نملك من الأدوات والسيناريوهات والقصص التي تصنع عملاً كاملاً، لكنه عمل

قائم بالدرجة الأولى على عكس صورة الضحية. وأنا لا أنكر أننا ضحايا في هذه الإبادة، وأن الزمن لا يغفر لنا مرور الإبادة دون أن نتركها تاريخاً موثقاً بأقلام من عاشوها لا من شاهدوها... لكن على القلم الذي يوثق الإبادة أن يعكس روح الفلسطيني الحقيقي الذي لا يعترف بالمحتل قوة لا بد لها أن تتقاسم حياتنا كي نحيا، أو أن يعترف بحق قوته في ظل انعكاسات عالم مسخ ومشوه مفطر بالوحشية.

كيف نخرج من هذا المشهد والسيناريو تحديداً؟

حين نعكس صورة الغزّي الأعزل الذي واجه الجوع بعلف الحيوانات، واستقرّ لوعيه وبنيان حريته أن خيارات الاستجابة لمطامع القوة العسكرية المفرطة بالنزوح وإفراغ غزة وشمالها، يجب أن يكون قراراً مدنياً. لأننا كمدنيين عزّل حين أراد المحتل القضاء على جهة محدّدة كما يدّعي فقد قاتلها بنا، أخذ منا ومن موتنا وجوعنا ونزوحنا وتشريدنا وتعبننا وهلاكنا سلاحاً كي يقضي على غزة كلّها، ويقضي على آخر فئات فلسطيني مازال مؤمناً إيماناً قاطعاً جازماً أن الحرية لا تأتي باتفاقيات السلام ولا التراخي والنواح في المؤتمرات واللقاءات الدولية، وأن الموت هو السلاح الذي واجهنا به المحتل كي يفقدنا آدميتنا كون البشري يسعى في فطرته إلى الحفاظ على حياته. وفقداننا الأدمية والصفة البشرية كان ضرورياً كي يستطيع سلخ هويتنا الوطنية، وسلخ مفردات الحرية من ضمائرنا. الآن آلاف الأصوات في غزة تلعن السابع من تشرين الأول/أكتوبر... لا ضيرَ فيها، ولا ضرارَ منها، فهو حقٌّ لها أن ترى أنها الجزء الخاسر وأنها الضحية، بل إن هذا التفكير صحيح، لكن لا يصحُّ عزله عن آلاف الأصوات الأخرى التي ترى أننا في سلسلة متتالية من المسخ الذي بدأته عصابات "الهأغاناه" قبل إفراغ القرى الفلسطينية واحتلالها. لكنها ظهرت في هذه الصورة في تسلسل زمني سخي بالخدلان والتراخي، ما جعل المحتل هو الرب الأعلى للمنطقة ونحن نعيش حسابنا لكفراننا بهذا الرب.

هكذا تبدو الكتابة عن الإبادة صعبةً، هكذا تصبح لغزاً يجب أن نرشق أحجيته في سيناريوهات عديدة، يجب أن يتحمّل الأدب هذه الأحجية، ويجمع تناصّها الفكري في عقل القارئ، كي يدرك مشهد الإبادة كما عاشها الغزّي حقاً، لا كما تخيلها عقله بمعزل عن ظروف نشأتها.

من ذاكرة الجوع والحرب

نعمة حسن

شاعرة وكاتبة من غزة، فلسطين

رَبَّيتَ فيما مضى قِطَّةً خرساء كانت تلجأ لي كلما جاءت أو أرادت قضاء حاجتها بحركة من رأسها، أو كأن تحرك صحن طعامها، أو تخرمش بيديها باب الغرفة التي كنت أسكنها من أجل الخروج. لن تمدّ قدمها نحوي لتنبهني أو تتمسح بي لإيقاظي، بل كانت تقف عند رأسي وتنظر فقط بتركيز لوجهي النائم حتى تشعرني بمراقبتها، فأنهض

لتلبية ما تريد. خصوصيتها في التعبير عن نفسها، ونظرتها لي وحدي... كل ذلك جعلني أشعر بها كأنها جزء من تكويني. أصبحت حرة معها في اللغة التي جمعتها. الدائرة التي أغلقت حولي جعلتني كأني قطة أجبرت على الصمت لتخمش فيما بعد معنى الحرية الزائف، وجعلت للحروب شكلاً مخالفاً لدي عن الرؤية السائدة.

حتى لا تنسى سيدي أننا مازلنا هناك

يراني البعض غير موالية لفكرة المقاومة في البلاد الممنوعة من الكلام، وآخرون يشككون في نزاهتي الوطنية، وقد أكون خائنة. هكذا قالت لي صديقة تشرب الكابتشينو أمام شاشة التلفاز تشاهد أخبار الموت وتبكي بنزاهة عالية. أحاول أن أحكي دون أن أمدّ يدي أو أن أتمسح بأحدٍ لأعبر عن رأيي. فقط أعلن عن احتياجاتي بوضوح وثبات في النظرة وأبقى أنا، دون أن أموء. كأني إذاعة تكوّنت خلف ساتر تراي: الرصاص يظهر جلياً في صوتي ولا يخرسني. اليوم نفذ الدقيق لديّ ولم يعد هناك ما أصنع به الخبز لأطفالي.

لا أحد مسؤول عنك. قد يستضيفك أحدهم، أخوك مثلاً، ومعنى الأحوّة لا تفسير ثابت له عندي. ستجلس في بيته، ضيف حرب، ما يعني أنك تتحمّل كافة مسؤولياتك: إن جعت ستجوع وحدك لن يقسم لك رغيفه، وإن متّ ستموت وحدك ولن تتسع لك زاويته الآمنة، فيما لو افترضنا أن هناك زاوية آمنة. وإن بكيت، سيراك الجميع جباناً لا تعرف معنى الصمود، وسيفرغ لك الجمع مساحة كبيرة للمحاكمة والاتهام.

كان عليّ تدبّر أمر الخبز، ولا مخابز في المدينة الجائعة، ولا دقيق للبيع إلا في الأسواق السوداء على الرغم من أن المدينة كلّها رمادية اللون بفعل غبار الحرب. وليس عليك تمييز لون الأشياء طالما تملك نقوداً أو نفوذاً، وأنا لا أملك أيّاً منهما، وليست لديّ وسيلة لإضاءة غرفتي والتخلّص من سوادها.

بادر محمود، ابني، في اقتراح متهور كعادته، بأن يذهب إلى مخازن الوكالة، يقصد الأونروا.

- بس لو حد مسكك حتنضرب، ويمكن يصير طخ (إطلاق نار)!

- يعني نموت جوع؟

- ها تموت طخ؟

خرج محمود وأخوه مصعب دون أن يتركا لي مجالاً للاعتراض، ولم يكن لديّ خيار آخر. لم أجلس للحظة، كنت أمشي ذهاباً وإياباً في ممرّ مترين، حصّتي من الغرفة المنكوبة، كذئبة أجمتها القضبان. أسمع قصف الطائرات وانهباء البيوت. وإطلاق الرصاص يترك ثقوباً في عقلي المنتصب أمام كل صوت يأتي من اتجاه الشمال حيث ذهب أطفالي للحصول على كيس دقيق من المخازن المحظورة على عامّة الشعب الجائع. ثلاث ساعات وأنا على تلك الحال. قُصفت المدن داخلي، ولم تكن لي حيلة للركض خارج نفسي لإنقاذها.

دفع مصعب أولاً باب الغرفة وعلى كتفه كيس دقيق. كانت الفرحة في ملامحه تقول إنه فتح القسطنطينية، وجاء لي بعنقود عنب من الجنة. قال، قبل أن أستطيع مساعدته على إنزال كيس الدقيق عن كتفه:

- إصوري! دخلت المخازن، وجبت كيس طحين، ولسّه محتفظ بشبشي!"
- ضحكت بصوت عالٍ وقتها لأنني أعرف معنى أن يفقد الشبشب في وقت لا يوجد فيه شبشب واحد في المدينة كلّها معروضاً للبيع!
- أضاف: طَخُوا جنب راسي، بس ما تخلّيت عن الشبشب عشان أقدر أشرد بالكيس. مهو يا أطلع بالشبشب والكيس، يا بدّيش أطلع!
- وسط ضحكاتي تنبّهت أن محمود لم يدخل خلفه: "وين محمود؟ هو لسّه ما جاش؟"
- طلع قبلي من المخزن وكان يحاول يساعد جارنا ياخذ كيس لبيته.
- عاد الرصاص ليدويّ داخل رأسي بكثافة أكبر. هل أصيب؟ هل قصف المكان؟ هل عُوقِبَ لأنه أخذ كيس دقيق لسدّ جوعنا؟

ساعة أخرى يحاول فيها مصعب إقناعي أن محمود تأخر لأسباب أخرى غير ما أفكر به. ثم جاءت الهدنة... دخل محمود وهو يحمل كيسين من الدقيق على كتفه المائل، خوفي جعلني أطلق كل الرصاص الذي تراكم داخل عقلي نحوه. حتى أنني نسيت أن أساعده في إنزال الأكياس التي تجعله يقف مائلاً. ربما هي رعونة الأمومة والرُعب الذي يتحكّم في عضلة لسانك الآن يجعلان الحُبَّ يخرج على صورة سباب ولعنات. ضدم محمود من ردّة فعلي وبدأ هو الآخر في الشبب لأنه خاطر بنفسه من أجل أن يحصل على الدقيق حتى لا نجوع. كشف لي عن ظهره الذي تظهر عليه خطوط الضرب الزرقاء والحمراء نتيجة استماتته في الحصول على كيس الدقيق. كان خوفي أشدّ قسوة عليه من تلك الجروح الدامية في جسده. كان الجلد أقرب لديّ من العناق، لم يكن يعرف أنني أردت أن أحتضنه طويلاً لأطمئنّ عليه وأعبر عن شكري.

ولكني لم أتعلم أبداً ترجمة خوفي إلا بتلك الطريقة. لم يعلمني أحد لغة العناق من قبل. القتال حتى في الحُبِّ هو اللغة التي حفظتها غيباً. بعد مرور ساعة من تلك الحرب الصغيرة، صنعت الكثير من الخبز على النار. كان شهياً يشبه ملامح محمود عندما يبتسم. انتقيت له أفضل رغيف وقدمته مع كوبٍ من الشاي. وهذه رفاهيّة تعادل وجبة غذاء فاخرة في مطعم في البلاد المدلّلة، يلبس النادل فيه ربطة عنق تغطي حلقه كاملاً... تحتاج أن تأكل شيئاً ساخناً من وقت لآخر حتى لا تنسى صوتك وتبدأ في المواء.

أيام صعبة

عاطف حسنين

شاعر من غزة، فلسطين

العاشرة ليلاً اهتزت دير البلح على صوت قصف شديد جداً. صوت ثلاثة صواريخ في لحظة واحدة، ولكن الكلّ يسأل أين القصف؟ وماذا نتج عنه؟ ربنا يستر! سطح البيت عندي ملئ بالنازحين من أقاربي. وبينما كنت أعيش في حالة القلق والتفاؤل، جاءني اتصال من صديق ليفاجئني أن القصف الذي هزّ دير البلح قبل ربع ساعة هو بجوار بيت شقيقي مباشرة، ولا أحد يعرف ما نتج عن ذلك القصف. وهنا بدا القلق والتوتر على وجوه جميع من كانوا عندي، وبدأت الاتصالات تتوالى وتؤكد أن بيت أخي قد تضرّر مباشرة، وأن هناك شهداء غير معروف عددهم. وفعلاً بعد أن انتصف الليل، تأكدنا من وجود شهداء: ابن أخي وأختي، أما الباقون فقد تمّ نقلهم إلى المستشفى. لقد كانت ليله ثقيلة جداً ويصعب فيها النوم...

عند الساعة السادسة صباحاً بدأت أستقبل جرحى القصف من أقاربي النازحين في بيت أخي، وأما الشهداء فقد تمّ دفنهم. وهنا وجدت نفسي أمام أكثر من ثلاثين جريحاً، جروحهم مختلفة ويحتاجون للعلاج المستمرّ. وجدت نفسي مسؤولاً عن أكثر من سبعين نازحاً نصفهم جرحى يتألّمون ولا يعرفون النوم أبداً. أما أنا، فوجدت نفسي وسط هذا العدد الذي يحتاج العافية والرعاية ولا خيار أمامي سوى التسليم بقدر الله عزّ وجلّ. وهنا بدأ فصل جديد لأيام وليالٍ صعبة حيث عشت معهم ذكرياتهم الأليمة عن لحظات القصف، وما وقع لكلّ واحد منهم. شعرت للحظة وكأنني كنت معهم لحظة بلحظة، أشاركهم ألمهم ودموعهم، وأثّاتهم طوال الليل... لقد عبّروا بدموعهم وآلامهم عن مأساة حقيقية لا يمكن نسيانها مهما مرّت الأيام.

سأروي لكم على عجل، فالوقت يضيق هنا...

رمضان بركة

أكاديمي وأخصائي العلوم النفسية من غزة، فلسطين

في أحد الأيام، باشرت عملي كمقدّم خدمات نفسية إرشادية وعلاجية، ودخلت إحدى الخيام بموعد مسبق مع أسرة نازحة في مواصي القرارة، وهي في الأصل من مدينة خزاعة. وفي هذا اليوم، وصلتني أخبار عن هدم بيتي بقنابل طائرات إف 16، وأرسل لي شاب من الجيران صوراً لبيتي المدمر. تألمت كثيراً، وبدأ شريط الذكريات يدور في ذاكرتي بين فقدان مسكني وتاريخ حياتي وضياح مقتنياتي ومكتبتي وغيرها من الأشياء العزيزة على قلبي سواء المعنوية والمادية. وعندما دخلت خيمة الحاجّة أم نسيم فديح، بدأت تتكلّم عن دمار بيتها في خزاعة، وتسرّد قصّتها مع مسكنها. هنا كان عناق

الألم: فاقد لبيته يستمع لنفس الجرح والقهر وفي الوقت نفسه يهون على الناس شعورهم بالفقدان، ويبت فيهم الأمل والصمود والتحدّي وقوة الإرادة والمواجهة. يا لها من مشاعر قهرية! والحمد لله كثيراً لأننا نجونا من الموت. هذه الحرب التي عشناها بتفاصيلها المريرة، كان الموت فيها هو المتاح في كل لحظة (صراع مرير مع الموت، وكثيراً كنّا نتمناه أملاً في الراحة الأبدية من أهوال القصف والنزوح والجوع وغيرها من التفاصيل اليومية للحرب). على صعيدي الشخصي، هذه الحرب كانت عمري الحقيقي وخبرتها أعلى وأفضل من كل شهاداتي العلمية. فيها رأيت الناس على حقيقتها، وفيها أكرمني الله وقدّرتني على خدمة الناس بما أتيح لي من إمكانيات وقدرات، وتحديداً في تقديم الخدمات النفسية الإرشادية والعلاجية. وأجمل ما في هذه الحرب هو أنني زرت الآلاف في خيامهم، وتحديثاً سوياً عن الألم والموت والأمل والصمود والتحدّي وقوة الإرادة والمواجهة والتحمل. كنّا غالباً نبكي سوياً على الشهداء.

نهاية

محمود بركة

أكاديمي وإعلامي من غزة، فلسطين

بين مشهدية الحرب والإبادة المستمرة في غزة وعلى امتداد فلسطين، والسؤال الصعب الذي يدور ويطول فيه البحث، وعلى الرغم من رغبة الإمساك بالحقيقة والاقتراب من اليقين في وجدان من عاش وتألّم وفقد ونزح تحت إقامته في العذاب... تظل الكتابة التوثيقية أو التأملية هي العين التي تقرأ جغرافيات الكون، وتعيد تعريف معنى الكتابة إن كانت مستحيلة. فأبناء فلسطين غرسوا الكلمة في كل بيت وشارع ومدرسة ومقبرة وحاجز وأرض وخيمة. هناك العيون تظل مفتوحة، وهناك ميلاد الحواس في عالم شاهد المذبحة على فلسطين. والكتابة الفاعلة هي انتصار على لغات القوّة الظالمة... وهذه النصوص ميراث من الأرض الفلسطينية، وهي ذاكرة أجيالها التي تضع أبجدية القراءة قبل الكتابة، وتسجّل صوت أهل البلاد، وترفع صوت السطر الأخير للشهيد الأسير وليد دقة "يا لقبور لن ندفن فيها، وبيا لشفاه لن نشيّع إليها قبلنا الأخيرة." وتعلّمنا غرس أصواتنا كما تُغرس الأشجار في الطرقات وينبت مع كل سطر يكتبه أهل الأرض "هذا هو جسدي، هذا هو دمي" فنحّب الحياة أكثر... 